المحاضرة الثانية: عوامل نشأة العمران الإسلامي

تمهيد:

امتدت حدود الدولة الإسلامية مع اتساع رقعة الفتوحات في بلاد الحجاز والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب، حيث نشط المسلمون الكثير من المدن التي كانت تحت سلطة الفرس والبيزنطيين، وأضافوا عليها مواقع ومدن جديدة، حسبما اقتضته الضرورة الآنية والرؤية المستقبلية، وقد ساعدتهم في ذلك عدة عوامل أهمها:

1-العوامل الطبيعية.

هناك فرق بين مصطلحي الموضع والموقع، فالأول يعني الصفات الطبيعية للمكان الذي تمثله المدينة من حدودها، وهي التي تكون عونا لها لتبقى وتستمر، كالأنهار التي نجدها عامل جدب للمدن، لذلك نرى المدن قد نشأت وتطورت على شواطئ دجلة والفرات، كما نشأت أيضا على ضفاف النيل منذ القدم، إلى غاية مطلع العصر الإسلامي أيم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، ويعني المصطلح الثاني جميع الارتباطات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بين المدينة والمناطق المحيطة بها، وعلى هذا الأساس فإن المدن الإسلامية تمثل مواقع متباينة نتيجة لتأثرها بعوامل وضوابط طبيعية واجتماعية واقتصادية وتاريخية متداخلة، ولا شك فإن للعوامل الجغرافية كالموضع والموقع مكانة مميزة بين العوامل التي تحقق صلاحية المدينة للبقاء. (موسوي، 1982، الصفحات 200-202)

ويتحدد العامل الطبيعي باختيار المواقع المفضلة ذات المناخ الحسن والقريبة من الماء والمحطب، وهذا ما حدث بالفعل في انتقاء مواضع كل من الكوفة والموصل وواسط وبغداد وسامراء، وكانت البصرة حسنة الموضع لما يتطلبه الوضع العسكري في ذلك الوقت (موسوي، 1982، صفحة 192).

كما كان ولاة وأمراء الدولة الإسلامية يختارون المواقع المخصصة لبناء مدنهم بعناية، واضعين في الدرجة الأولى الشروط البيئية والجغرافية كالتضاريس، والمناخ، وطبيعة المياه، والسهول (خضرة، 2013، صفحة 40).

ويلاحظ بجلاء أن العوامل الطبيعية قد ظهرت في المدن الإسلامية على الروابي وضفاف الأنهار وامتدت آثارها في أثناء نمو تلك المدن عموديا أو أفقيا. كما ساهم المناخ كعامل طبيعي في تطور المدن ونموها، بما لا يقل عن دور مجاري المياه، فقد حرص الخلفاء والأمراء المسلمون على أن تكون مدنهم منشأة في مواضع صحية خالية من الحشرات، وأن تكون مناظرها مما ترتاح له النفس، مما أدى إلى تتابع الهجرات والاستيطان فيها باستمرار. (موسوي، 1982، الصفحات 200-205)

2-العوامل السياسية.

كان سببا رئيسيا في ازدهار الكثير من المدن، فكل أسرة حاكمة لها أصولها القبلية التي ترتبط بها فتحاول بناء عاصمة جديدة لها يتجمع بها أشياعها، فقد نقل الخليفة علي بن أبي طالب عاصمة الخلافة الإسلامية إلى الكوفة لكثرة أشياعه فيها، ثم كان لنجاح معاوية بن أبي سفيان في تأسيس الخلافة الأموية أن حرمت الكوفة من مكانتها السياسية، في مقابل ذلك أخذت دمشق مكانتها، حيث أتباعه في الشام التي قضى خمسا وعشرين سنة واليا عليها، كما أقيمت العاصمة المصرية في الفسطاط ثم نقلت إلى العسكر في عهد الخلافة العباسية، ثم إلى مدينة الطلائع في عهد الطولونيين، ثم انتهت إلى مدينة القاهرة في عهد الخلافة الفاطمية (المعتصم، 1980، الصفحات 20-21).

وكان نقل العاصمة دائما مع تغير الولاة، وقد كان لهذا التركيز للأشياع في المدينة التي تتخذ عاصمة للحاكم الجديد، أن نشأت مدن تشبه ما عرف فيما بعد باسم مدن البلاط في أوروبا، فلقد تجمع أتباع المعتصم من القواد الأتراك في سامراء، كما تجمع أشياع إدريس الثاني الذين قدموا من القيروان، ومن ضواحي قرطبة وشغلوا الحيين الأساسيين في مدينة فاس، وكثيرا ما كانت المدينة تحمل اسم الخليفة كالمهدية والمستنصرية والمتوكلية (المعتصم، 1980، الصفحات 20-21).

ففي أيام الخلفاء الراشدين والأمويين نشأت وتوسعت المدن في أثناء حركة الفتوح الإسلامية، فأصبحت عدة مدن مركزا للفتوح والإدارة واضحة الشخصية قابلة للسكن والزراعة، وذات سيادة سياسية، وفي أيام العباسيين تبلورت فكرة المدينة السياسية. فقد صاحب التطورات السياسية عند قيام دولة بني العباس، محاولات ناجحة لتنظيم مراكز إدارية جديدة، وذلك لحماية مصالح الدولة السياسية من الأخطار الداخلية والخارجية، ولتأمين هذه المصالح أنشأ العباسيون مدن استراتيجية هي هاشمية الكوفة، والأنبار،

وبغداد، وسامراء، والمتوكلة لتجميع الأنصار والأشياع، وتعمل خدمة الوظيفة السياسية بأحسن وجه، كما لعب العامل السياسي دور جوهري في مسألة نشأة المدن لأغراض سياسية بمصر، فنشأة العسكر لتكون مركزا إداريا للحكومة الجدية بدلا من الفسطاط، كما أبدل ابن طولون العسكر بالقطائع حينما استقل بالولاية عن السلطة العباسية، في حين أنشأ الفاطميون لنفس الغرض القاهرة عند دخولهم مصر لتكون عاصمة سياسية لهم (موسوي، 1982، الصفحات 56-58).

3-العوامل العسكرية.

كان من الضرورات أن ينشئ المسلمون في البلاد المفتوحة مراكز عسكرية تكون مقرا لجند المسلمين (المعتصم، 1980، صفحة 20)، وقد كانت البداية في شكل مخيمات عسكرية غير مستقرة بهدف توفير أماكن لإقامة الجند ومدادهم بالعتاد، ثم تحولت هذه المعسكرات إلى مدن إسلامية في البلاد المفتوحة ذات طبيعة حربية (بكاري، 2018، صفحة 29)، بل كثيرا ما شيدت كمعسكرات للجند، وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب "ض" قواده أثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على أطراف العراق مما يلي البادية لينزلها الجند العربي وعياله، فأختط عتبه بن غزوان في سنة 16هـ مدينة البصرة، ومن أمثلة المدن التي أقيمت للغرض العسكري، المعسكرات التي تحولت إلى مدن وحواضر مدنية مثل مدينتي الفسطاط والكوفة (المعتصم، 1980، صفحة 220).

وكانت هذه الأمصار من ضرورات الفتح في البداية، إذ لا بد من إنشاء مراكز عسكرية لبسط السيطرة (موسوي، 1982، صفحة 56). ونجد في مقدمة المدن التي كان وراء إنشائها هدف عسكري في بلاد المغرب الإسلامي مدينة القيروان بالمغرب الأدنى، والتي أسست في البداية كقاعدة عسكرية لإقامة وإيواء الجند، ثم تم إسكانها لاحقا بالسكان البربر والعرب (النجار، 2011، صفحة 137).

وعادة ما تخضع المدن ذات الطبيعة العسكرية إلى عدة اعتبارات خاصة، من خلال اختيار المواضع ذات الخاصية الدفاعية، خاصة منها التي تكون على قمم الجبال، أو التلال، أو على السفوح الجبلية أو على ضفاف الأنهار على موقع معين يسهل اختياره. وعليه فقد كانت وفقا لهذه القواعد معظم المدن ببلاد المغرب الإسلامي داخلية حتى لا تكون عرضة للهجومات من البحر، كما وجد الفاتحين من الضروري أن تكون المواضع المختارة لإقامة مدن جندهم في الصحاري حتى تكون

مستعصية عن الأعداء، كما خضعت المدن العسكرية إلى اعتبارات في تخطيطها وبنائها بما يتوافق ووظيفتها الدفاعية، خاصة ما تعلق بالسور المحيط بها، وتزويدها بالخنادق، وأبراج المراقبة، وتحصين أبواب (عبد الستار، 1990، صفحة 45).

4-العوامل الاقتصادية.

يعد هذا العامل الاقتصادي من أبرز العوامل التي أسهمت في نشأة وتطور المدينة الإسلامية، والتي يراعى فيها اختيار موقعها الملائمة لظروف النشاط الاقتصادي بكل مكوناته (ابن أبي الربيع، 1996، صفحة 106)، فالعالم الإسلامي بحكم موقعه المتوسط في العالم القديم مَثَّلَ مرحلة انتقالية بين أقاليم جغرافية مختلفة، وملتقى للطرق التجارية التي تربط بين حضارات الشرق والغرب، فكانت مكة تقع في منتصف الطريق بين اليمن والشام، وترتكز مصالحها على تأمين الطرق التي تمر فيها ثروتها، فقامت حفظا للسلام بعقد سلسلة من التحالفات بين بدو الصحراء وعشائر المدن، وقد عمل الإسلام على توثيق الصلاة مع الحضارات القديمة على امتداد هذا الطريق، وأنشأ مدنا جديدة إما للتحكم في طرق التجارة الممتدة من الصين إلى اسبانيا، أو لتكون بمثابة مراحل على هذه الطرق (المعتصم، 1980، صفحة 221)

وكان تأثير العامل الاقتصادي أيضا واضحا في تطور عدة المدن، إذ تتطلب المدينة ظهيرة أو إقليم من الأرض المنتجة لكي تبرز وجودها، كما هو الحال في مدن الكوفة، وواسط، وبغداد، في حين كانت المهن إضافة إلى النشاط التجاري أثر كبير في نشأة وإقامة عديد من الأسواق والمحلات الحرفية والتجارية في داخل المدن وخارجها، مثل أسواق ومحلات بغداد، والبصرة، وسامراء (موسوي، 1982، صفحة 195). وبفضل هذا العامل توسعت شبكة المسالك التجارية البرية أولا ثم البحرية فيما بعد، ويشير في هذا الصدد ابن خلدون إلى هذا في خضم قوله: " فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة، وأصله كله العمران، وما يصاحبه من تأثير في حياة السكان والازدهار الاقتصادي"، ويضيف أيضا: "ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر (ابن خلدون، ب ت، صفحة 997)".

وقد توجت العلاقة العضوية بين تطور التجارة ونشر الإسلام، بظهور تجمعات سكانية في مختلف مراكز التجارة الناشئة على مد المسالك الرابطة بين الصحراء جنوبا وموانئ البحر المتوسط شمالا من جهة، وبين الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة أخرى، وعليه فقد كان للتجارة الإسلامية دور مهم إرساء قواعد مدن كثيرة (بكاري، 2018، صفحة 32).

5-العوامل الدينية.

بين الدين والمدن علاقة قديمة، فالدين بطبيعته عملية جماعية، تؤدى في بمراكز مَدَينَة أنشأت خصيصا لهذا الغرض، فقد كان الدين الإسلامي عاملا مهما في تحويل طبيعة الكثير من المدن لوظيفة دينية، فقد تحول اسم يثرب في الإسلام إلى اسم المدينة، وهو اسم علم، وقد كان المسجد الجامع أول بناء يقام في المدين الجديدة، حيث أصبح رمز للزعامة الروحية للدولة الإسلامية، وباعث النهضة فيها (موسوي، 1982، الصفحات 157-158).

ولم تكن للمدن الدينية مواقع مختارة، وإنما هناك مواضع ومواقع خارقة، فمواضع الوظيفة الدينية لا تخضع للمنطق الجغرافي، بل تتحدد بإحداث أو معتقدات دينية، فقد يتحدد الموضع بسقوط حجر مقدس كالحجر الأسود في مكة، أو يرتبط بعقائد الجماعة وأفكارها، ويتحدد كذلك موضع المدينة أيضا بضريح إمام كضريح الإمام علي في النجف، وبمدائن ولي كالشيخ منصور في صفاقس بتونس. (موسوي، 1982، الصفحات 158-159)

فالمدن الإسلامية تنشأ في الأغلب حول نواة صغيرة هي في الأصل صنم أو حجر مقدس أو ضريح أو قبر، وهذه النواة تكون أول مظهر لنشأة المدينة، فعندها تولد التجارة والصناعة، وعندها ينشأ أول سوق للمدينة ثم تنمو أوجه النشاط الأخرى مع الزمن، وتجتذب المدينة السكان تدريجيا، وينحصر كل النشاط المدني داخل الإطار الديني الرئيسي، وبهذا الشكل استطاعت المدن الدينية إن تكون مراكز للتجارة والصناعة والثقافة بمرور الزمن (موسوي، 1982، صفحة 159).

فقد وجدت في العراق مثلا أضرحة مقدسة مقامة على مدافن أئمة وعلماء، نواة لمدن دينية كبيرة منها كربلاء والنجف والكاظمي وغيرها، كما أصبحت أماكن اتخذت مسرحا لإقامة الشعائر والطقوس الدينية، أصبحت فيما بعد مدنا لها شأنها في حياة الشعوب، كما تمارس في هذه الأماكن

نشاط له أثره في حياة أفراد المجتمع، كما أن قداسة المكان تنتقل إلى سكانه وتضفي عليهم اعتبارات خاصة، فكان ولا يزال الناس ينظرون للأئمة والأولياء نظرة احترام، ويعتقدون في سموا مكانتهم وصفاء سريرتهم فيتبركون بهم، وما تزال الأماكن المقدسة تحتفظ باعتبار خاص في حالات الحرب والكوارث، مما يضفي عليها القوة والحصانة، وأشعر سكانها بأنهم في وضع تأميني ضد كل تقلبات الزمن (موسوي، 1982، الصفحات 159–160).

قائمة المصادر والمراجع:

- زينب بكاري. (2018). المراكز العمرانية في الغرب الاسلامي -مدينة سجلماسة 14 هـ - 597 هـ-. *مذكرة ماستر* . جامعة محمد خيضر بسكرة.
- شهاب الدين أحمد ابن أبي الربيع. (1996). *سلوك المالك في تدبير الممالك*. (تحقيق: أحمد عارف عبد الغني، المحرر) دمشق، سوريا: دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع.
- صالح بن علي الهذلول. (1994). *المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية* (الإصدار 1). السعودية: دار السهن.
- طه عبيد خضرة. (2013). *المدينة الإسلامية: تاريخها وتخطيطها وعوامل ازدهارها وانحطاطها*. عمان: دار الفكر ناشرون وموزعون.
- عبد الرحمن ابن خلدون. (ب ت). *المقدمة*. المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطبع والنشر.
- فخري خليل النجار. (2011). *تاريخ الحضارة العربية الاسلامية*. عمان: دار صفاء للتوزيع والنشر.
- محمد المعتصم. (1980). *حوليات الانسانيات والعلوم الاجتماعية، 2*.
- محمد عبد الستار. (1990). *المدينة الاسلامية، عالم المعرفة*. الكويت.
- محمد مصطفى عزب. (1997). *تخطيط وعمارة المدن الاسلامية*. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- مصطفى عباس موسوي. (1982). *العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدينة الإسلامية*. (منشورات وزارة الثقافة والاعلام، المحرر) العراق: دار الرشيد للنشر.